المحور الثاني عشر: علاقة الاستشراق بالاستعمار

مقدمة:

تُعدّ العلاقة بين الاستشراق والاستعمار من أكثر القضايا حساسية في تاريخ الفكر الغربي تجاه الشرق، إذ يتفق عدد كبير من الباحثين—ومنهم مستشرقون أنفسهم—على أنّ الاستشراق لم يكن مجرد معرفة علمية محايدة، بل كان في كثير من مراحله أداة مباشرة أو غير مباشرة لخدمة المشروع الاستعماري الأوروبي، ويمكن رصد هذه العلاقة من خلال جملة من الشواهد التاريخية والاعترافات الصريحة.

✦أولاً: اعترافات مستشرقين بدور الاستشراق في خدمة الاستعمار

تجلّى اعتراف عدد من المستشرقين الأوروبيين بأنّ المعرفة التي أنتجوها لم تكن دوماً بريئة، ومن أبرز الشهادات ما أورده المستشرق هارمان واستيفان ميلر، ففي مقال لميلر يقول: من الظلم أن يقوم بعض المستشرقين بتوظيف معرفتهم الدقيقة بالعالم الإسلامي لخدمة القوى الاستعمارية في محاربة الإسلام والمسلمين... وهذا أمر مؤلم يجب الاعتراف به، هذا الإقرار يكشف بوضوح إدراك بعض المستشرقين للتوظيف السياسي والمعرفي الذي مارسه الاستعمار من خلال الدراسات الشرقية.

✦ثانياً: أمثلة لمستشرقين خدموا الاستعمار الأوروبي

1. مجلة الإسلام الألمانية:

تشير "مجلة الإسلام" الألمانية إلى مستشرقين قدّموا خدمات مباشرة للدولة الألمانية في سياق احتلالها لبعض أجزاء أفريقيا، كما يشير الباحثون إلى بارثولد الذي زوّد روسيا بمعلومات حيوية حول آسيا الوسطى بهدف تسهيل بسط سيطرتها عليها.

2. ريموند لول (1235–1316م):

يعتبر لول نموذجاً بارزاً للمستشرق . المبشّر. فقد: درس العربية ليجادل العلماء المسلمين بلغتهم، وجاب بلاد الإسلام في رحلات تبشيرية، وساهم في إنشاء مؤسسات مخصصة لإعداد المبشرين، ولعب دوراً في إنشاء كلية الثالث المقدس، وشارك في تأسيس مجمع فيينا 1311م الذي ضم ستة معاهد لتعليم العربية، ومارس التنصير في مساجد إسبانيا الشرقية مستنداً إلى السلطة المسيحية.

3. صمويل زويمر:

من أبرز روّاد التبشير في الشرق الأوسط، ويلقّب بالرسول المختار للعالم الإسلامي بسبب نشاطه المكثف في تحويل المسلمين عن دينهم، ومن عباراته المشهورة: لقد أعددتم جيلاً في ديار الإسلام لا يعرف الصلة بالله... وأخرجتموه من الإسلام من غير أن تدخلوه في المسيحية... ومن ثمّ أصبح الجيل الإسلامي الجديد لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، وذلك تماماً كما أراده الاستعمار، هذه الكلمات تختزل مشروعاً أيديولوجياً كاملاً يرى في الاستشراق أداة لإعادة تشكيل الوعي الإسلامي بما يخدم خطط القوى الغربية.

✦ثالثاً: الأهداف السياسية في كتابات المستشرقين

تجمع غالبية كتب الاستشراق على وجود أهداف سياسية واضحة إلى جانب الأهداف العلمية المعلنة، ومن أهمها:

1. الاتصال بالسياسيين في الدول العربية والإسلامية ومعرفة اتجاهاتهم.

2. التواصل مع الإعلاميين والصحفيين لرصد حال الرأي العام في تلك الدول.

3. التنسيق مع عملاء محليين يخدمون المصالح الغربية.

4. بثّ الاتجاهات السياسية المرغوبة لصالح القوى الاستعمارية.

5. إثارة الكراهية تجاه المسلمين وتشويه صورة الإسلام.

6. فصل الإسلام عن المسلمين عبر خلق هوّة بين العقيدة وسلوك المجتمع.

7. دعم السياسات الاستعمارية تحت غطاء البحث العلمي.

هذه الأهداف تظهر كيف تحوّل الاستشراق في فترات معينة إلى جهاز معرفي . أيديولوجي موازٍ للاحتلال العسكري.

✦رابعاً: الخلفية التاريخية — منذ الحروب الصليبية

لم يبدأ الاهتمام بالشرق في القرن التاسع عشر فقط، بل تعود جذوره إلى الحروب الصليبية حيث تشكّلت أولى صور الصراع الديني والمعرفي، وقد رأى عدد من المستشرقين المسيحيين الأوائل أن دراسة العربية والإسلام جزء من استراتيجية المواجهة الفكرية.

وفي مراحل لاحقة، ظهرت نظريات تعتبر الإسلام "عقيدة مقتبسة" أو "يهودية محرفة"، ومن أبرز ممثليها المستشرق اليهودي الألماني إبراهيم غيغر (1810–1874) الذي زعم أن النبي محمد ﷺ استقى عقائد من ديانات سابقة، في طرح يغلب عليه الطابع الأيديولوجي المناقض لأسس البحث العلمي.

كما انصرف عدد من المستشرقين إلى تفكيك النص القرآني دون اعتبار سياقه اللغوي والتاريخي، مركّزين على المقارنات الجزئية بين القرآن والتراثين اليهودي والمسيحي.

✦خامساً: انتقال الاستشراق من دراسة النصوص إلى تحليل الفكر والفرق

مع منتصف القرن التاسع عشر اتسعت الدراسات الاستشراقية لتشمل التيارات الكلامية، والمدرسة الاعتزالية والأشعرية، والفلسفة الإسلامية، والتصوف، والفكر الفارابي والسينوي، وعلاقة الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية.

وكان بعض المستشرقين ينظرون إلى التيارات الإسلامية من منظار خلفياتهم الدينية والفلسفية فشبّهوا المعتزلة بالقرّائين اليهود، واعتبروا الأشاعرة مماثلين للتيارات المحافظة في المسيحية، وقاربوا الشيعة بالحركات البروتستانتية المنشقة عن المؤسسة الدينية، هذه المقارنات تكشف إسقاطات غربية على الفكر الإسلامي أكثر مما تكشف فهمًا موضوعياً له.

✦سادساً: كيف خدم الاستشراق المشروع الاستعماري؟

ارتبط الاستشراق تاريخياً بالاستعمار من عدة مداخل:

1. توفير معرفة دقيقة عن الشعوب العربية والإسلامية وثقافاتها.

2. تهيئة صورة نمطية عن المجتمع الشرقي باعتباره قاصراً يحتاج إلى الوصاية الغربية.

3. تبرير الغزو العسكري وإضفاء الشرعية الأخلاقية عليه.

4. المساهمة في تفتيت المجتمعات الشرقية عبر تعزيز الانقسامات الطائفية والعرقية.

5. التحكم في مسار الثقافة والتعليم بما يضمن هيمنة الحضارة الغربية.

وهكذا أصبح الاستشراق—في فترات طويلة—أداة معرفية مساعدة للاستعمار ورافداً أساسياً لتصوراته وسياساته.

✦الخاتمة:

إنّ العلاقة بين الاستشراق والاستعمار علاقة بنيوية وثيقة، خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد انتج المستشرقون معرفة واسعة عن الشرق، غير أنّ هذا الإنتاج—بفعل الظروف السياسية—غُيّب فيه البعد العلمي لصالح الوظيفة الاستعمارية.

ومع ذلك، يبقى من الضروري التمييز بين اتجاهين:

1. استشراق علمي موضوعي أسهم في تحقيق وفهرسة التراث العربي والإسلامي.

2. استشراق أيديولوجي استعماري سعى إلى إخضاع الشرق معرفياً وسياسياً.

والوعي بهذه العلاقة التاريخية يُعدّ شرطاً لفهم كيفية تشكّل صورة الشرق في الفكر الغربي، وكيفية استعادة قراءة التراث بعيداً عن التشويه الأيديولوجي.